"ساعات ما قبل الفجر"
قصة: محمد خليل عليان

(إهداء: إلى المناضِلَين الشَّهيدَين علي الجعفري وراسم حلاوة.)

(1)

تمدد على أرض الزنزانة العارية. اصطدمت أصابع قدميه بالجدار، وأغمض عينيه للمرة الألف. عبثًا حاول أن ينام. انقلب على جنبه. صدرت عنه أنّة خفيفة. عدّ من الواحد للألف. لكن أنّى للنوم أن يأتيه؛ فالألم يسري في كل أنحاء جسمه، وأمعاؤه تتلوّى وتصرخ، ورأسه يدور، وضوء المصباح الساطع يَخِزُ عينيه كالإبر، وصراخ من بعيد يزيد من أرقه واضطرابه. انقلب على جنبه الآخر. أطلق تنهيدة عميقة. تمنّى لو ينام

لحظة واحدة. لحظة واحدة فقط لينهض بعدها أكثر قوة. حاول أن يصفيَ ذهنه، ويطرد الأفكار التي تحاصره بعناد. أعاد الكرة مرة أخرى، وأغلق عينيه بقوة، وغطّاهما بمنديله عسى أن يخفف ذلك من وهج الضوء المنبعث من المصباح، وراح يعدّ: واحد.. اثنين.. ثلاثة..خمسين. علا الصراخ. اخترق أذنه. سمع وقع خطوات سريعة. نهض فوقف قبالة باب الزنزانة المصفّح بالصاج. وضع أذنه على الباب. أصاخ السمع علّه يعرف شيئًا، فسمع قرقعة مفتاح، ثم صوت الباب وهو يصفق، وصراخًا. جلس على الأرض. أسند ظهره إلى الحائط، وضمّ ركبتيه بذراعيه منتظرًا دوره الذي لا يعرف متى سيأتي أو يكون.

(2)

لا يعرف كم من الوقت مرّ عليه وهو في جلسته هذه. يبدو أنّ أطرافه قد تخدّرت، وفقدت الإحساس بالألم، أو كادت. أحسّ بالاختناق من شدة الحرارة كما لو كان يجلس في أتّون من نار. تبللت ملابسه بالعرق، والتصقت بجسمه الضامر، وتيبست شفتاه وجفّ ريقه، وشعر بالعطش الشديد. تمنّى لو يحصل على قطرة ماء.. قطرة واحدة ليس أكثر يبلل بها شفتيه المتيبستين. كان يدرك أنّ هذا أمل بعيد المنال، فقد يمرّ وقت طويل دون أن يطفئ هذا الظمأ القاتل ولو بقطرة ماء، وربما لن.. من يدري؟

هو لا يدري، ورفاقه الذين طرحوا هذا السؤال في سيارة النقل أيضًا لا يدرون. كل ما يعرفه هو أنّ أحداثًا من هذا القبيل قد حصلت في الماضي، وقد تحصل اليوم. صحيح أنّهم لم ينجحوا في كسر الإضراب بالقوة، ولكنهم قتلوا.. هم قتلوا في كل مرة حاولوا فيها كسر الإضراب. حاول أن يطرد هذه الفكرة اللعينة من رأسه. لم يستطع. تشبثت به بعناد ليحدث ما يحدث، وليكن ما يكون. المهم أنّه لن ينتهي الإضراب إلا بتحقيق المطالب، ولكن هل يقوى على مواجهة ما قد يحدث وهو على هذه الدرجة من الوهْنِ الجسديّ؟ ساءل نفسه. لقد عزم على أن لا ينهي الإضراب معتمدًا على إرادته، وهذا يكفي بالنسبة إليه. صحيح أنّه في اليوم الثامن للإضراب، والألم يسري في كل أوصاله، وأنّ الرحلة الطويلة زادت من إرهاقه، وسببت له صداعًا شديدًا، وأنّ الوقفة أمام الجدار التي دامت لأكثر من ساعتين استنزفت ما تبقّى لديه من قوة، وصحيح أنّ النيران تشتعل داخله من شدّة العطش، وليس بمقدوره أن يبلل شفتيه المتيبستين بقطرة ماء. كل هذا صحيح، ولكن ألم يكنُ الإضراب الملاذَ الأخير لرحلة المعاناة- الاستهداف الطويلة؟ عليه أن يستمر حتى النهاية، وأن لا يخذل رفاقه الذين ليسوا أحسن حالا منه... تمايل مكانه.... حاول أن ينهض... علّ ذلك يريحه بعض الشيء، ولكن سرعان ما تهاوى جسمه الهزيل على الأرض من وطأة الألم، ولم يستطع

أن يسند ظهره المقوّس، واشتدت الآلام في مفاصله، وشعر بأنّ رأسه يكاد ينفجر. تنهّد، ومدّ لسانه الذي استحال كقطعة مطاط إلى شفتيه ليبللهما بما تبقى في فيه من لعاب. الماء.. الماء هو الذي يطلبه الآن. شعر بأنه يحترق. أغمض عينيه، ووجد نفسه على حافّة بئر تقع في منتصف المخيم. يلقي بنفسه فيها، ويظل يشرب منها ويشرب حتى تفرغ. يشرب كل ماء البئر ولا يرتوي. يتجه نحو بئر مجاورة يشرب ماءها حتى ينضب ولا يرتوي. يتجه نحو ثالثة، فرابعة ولا يرتوي. كل ماء العالم لا يكفيه. آه.. ما ألذّ الماء! وما أطيبه! كان قبل ساعات يتأفف من الماء، ولا يشرب إلاّ بإلحاح الرفاق، ليحافظ على ضغط الدم، وكان يشعر بالغثيان عندما يشرب كأسًا واحدة من الماء، أمّا الآن فقد أدرك كم كان غبيًّا، وأدرك الفرق بين الجوع والعطش. احتمل الجوع ثمانية أيام، ومن يدري فقد يصل الرقم إلى ثلاثين، وربما الأربعين، أو الخمسين. إنه يحتمل الجوع مهما طال، أمّا العطش، فكم من الوقت سيحتمله؟

لقد عرفوا كيف يعذبونه. لم يأخذوه فورًا إلى العيادة حيث تجري محاولات كسر الإضراب، بل ألقوه في زنزانة منفردة.. عارية.. بجدران سوداء، وكوّة صغيرة تتوسط سقفها، وبلا مرحاض، أو صنبور ماء، وتركوه ليعاني ساعات طويلة من العطش والجوع وشدة الحرارة والإرهاق والانتظار.. الانتظار؟

فكر بهذه الكلمة "نعم".. الانتظار- هو أصعب ما يواجهه الأسير في مثل هذه الحالات. هو يقبع في زنزانة صغيرة. ينتظر شيئًا لا يعرف نتيجته. لكن الصراخ المتواصل الذي يسمعه يدلل على أنه شيء رهيب. لو أخذوه من البداية لانتهى الأمر وارتاح. لو عرف متى سيأتي دوره لانتظره بعذاب أقلّ. لكنه لا يعرف. أيأخذونه في هذه اللحظة، أم بعد ساعتين، أم ثلاث؟ من المؤكد أنه سيعاني الآن وسيعاني هناك.

ارتفع الصراخ، وتردّد صداه في أروقة السجن وزنزاناته. أحسّ بقلبه يقفز من بين ضلوعه. شعر بالقشعريرة تسري في بدنه حينما سمع الخطوات الثقيلة ذاتها تقترب، والصراخ المرافق لها يعلو شيئًا فشيئا. فهم أنّ أحد المناضلين قد عاد، وأن أحدًا غيره سيقاد إلى هناك. ربما يكون هو.. ربما.. من يدري؟!

شعر بالارتياح لهذه الفكرة. قد يكون هو الذي سيقاد إلى هناك لتنتهي هذه الحالة الثقيلة من العطش والانتظار. لا يهمّ كيف. المهم أن تنتهي. أصاخ السمع، وراح يتابع الخطوات الثقيلة والصراخ الذي بدأ ينخفض رويدًا رويدًا حتى استحال إلى أنين يكاد لا يسمع. سمع قرقعة مفتاح وشتيمة قذرة قذفها الحارس في وجه الأسير القادم. صفق الباب مرة ثانية. اقتربت الخطوات نحو زنزانته. بلع ريقه. اقتربت الخطوات أكثر فأكثر. من المؤكد أنّ السجّان سيقف وراء باب زنزانته، ويفتحه ليقوده

إلى هناك. خفق قلبه خفقات سريعة متتالية، ونهض على قدميه متكأً على الجدار. أحسّ بالسّجان على بعد خطوة من الباب. توقف السجّان وأخرج المفاتيح من جيبه. كاد صوت قرقعتها يصمّ أذنيه. عاد صوت الخطوات يتناهى إلى سمعه. لم يتوقف السجّان إلا للحظة، واستمر في السير نحو زنزانة أخرى. زنزانة من؟ إنه لا يدري. تجاوز زنزانته، وأدرك أنّ دوره لم يحن بعد.

(3)

كم الساعة الآن؟ ربما تكون الثانية صباحًا أو أكثر قليلاً. مضى عليه أكثر من أربع ساعات وهو في زنزانته ينتظر أن يذهب هناك، وطوال هذا الوقت والصراخ لم ينقطع لحظة واحدة. يعيدون واحدًا ويأخذون غيره، والعملية تتكرر هكذا دون توقف. هل حققوا مرادهم؟ هل نجحوا في حمل المناضلين إلى إنهاء الإضراب؟ استبعد هذا الاحتمال، إذ لو كانوا قد نجحوا لما كان هناك حاجةً لاستخدام العنف، ولكان الصراخ قد انقطع. من المؤكد أنهم فشلوا في محاولاتهم، وهذا ما جعلهم يجربون حظهم مع كل واحدٍ بمفرده. شعر بالارتياح لهذا الاستنتاج، وافترّت شفتاه عن ابتسامة باهتة. الصراخ لن ينقطع، وهذا دليل على أنهم يواجهون إرادة قوية ليس من السهل كسرها. آهٍ ما أعظم هؤلاء الذين يتحدون أقسى

أنواع التعذيب بإرادتهم الصلبة وإيمانهم القوي! تذكرهم واحدًا واحدًا. انتابته موجة الحنين الدافئ. نعم. أحنّ إليهم. تحرّك الحبّ الكامن في الأعماق. هذا الحبّ الذي يظهر إلى السطح، ويتجلّى بأروع أشكاله في مثل هذه اللحظات الرهيبة، التي أحسّ خلالها أنه مرتبط برفاقه أيّما ارتباط.

اشتدّ الصراخ. جلجل صداه في كل أنحاء السجن، واخترق أذنيه كالمسامير. لم يسمع في حياته صراخًا على هذه الدرجة من الحدّة. "لا.. لا.. لن آكل..". ترى من هو صاحب هذا الصوت الّذي يقطّع نياط القلوب؟ ربما يكون أبو السعد ذو العينين الصغيرتين الذكيتين والوجه الضامر (آه يا أبا السعد. أنت تتعذب وأنا هنا أنتظر دوري. ماذا عساي أن أفعل يا رفيق؟ أصمد).

مصمص شفتيه، وأطلق تنهيدة عميقة، وحرّك رجله التي تخدرّت، وسرت في بدنه موجة شديدة من الآلام وشعر بالاختناق. تحسّس وجهه غير الحليق، وراحت أصابعه تعبث بشعرات لحيته، وذهب بفكره إلى (أبي السعد) الذي قد يكون هو الذي يُسمع صراخه الآن. قبل ساعات كان يجلس بجانبه في سيارة النقل. يداه مكبلتان إلى الوراء، وقدمه مربوطة بسلسلة نهايتها تطوّق قدم رفيقه. كان منكمشًا على نفسه وحبات العرق تتساقط من جبينه بغزارة؛ لتسقط على الأرض، وتختلط مع القيء

الأصغر الذي كان يخرج من معدته كلما لفحت أنفه رائحة النفط الكريهة المنبعثة من سيارة الشحن.

- أين ينقلوننا يا رفيق؟ ألا يمكنك تقدير الاتجاه؟

نظر إليه أبو السعد بعينيْه المتعبتين ووجهه الأصفر الشاحب، وتحركت شفتاه المتيبستان بمشقة:

- ليتني أستطيع ذلك. لديّ إحساس بأننا سنذهب إلى مسلخ.

- إلى مسلخ؟

- لن نذهب إلى نزهة يا رفيق.

ضغط السائق على الفرامل، وتوقفت الشاحنة فجأة، واندفعت الأجساد الضامرة المتعبة إلى الأمام فالخلف، واصطدم رأس أبي السعد بجدار الشاحنة، وصدرت عنه أنّة موجعة.

- إلى مسلخ؟ أنت تقول إلى مسلخ؟ هذا يعني أنّ أحدًا منّا لن يعود.

قال ذلك فيما نظر بأسىً إلى وجه أبي السعد الذي ازداد شحوبًا من تأثير الصدمة، وتصفّح وجوه الأسرى الستة والعشرين الذين تراصوا متكاتفين على المقاعد وأيديهم إلى الوراء، والقيء الأصفر كريه الرائحة يلطخ ملابسهم وأحذيتهم، ويغطي أرضية السيارة.

- سنعود يا رفيق، ولن يتمكنوا من حملنا على إنهاء الإضراب، ومهما بلغ منّا الوهن فنحن أقوياء.

تلقف كلمات أبي السعد بفرح الأطفال، وسقطت عليه باردة منعشة. (سنذهب إلى المسلخ.. إلى المسلخ، ومع ذلك سنعود).

- ولكن يجوز يا رفيق أن.. يعني..

- أفهمك يا رفيق. كل شيء يجوز. هذا احتمال. نحن لا نحب الموت ولا نسعى إليه، ولكننا لا نخشاه إن اعترض طريقنا.

اغتصب أبو السعد ابتسامة، وأطلق زفرة قوية تراقصت معها شعرات شاربه الأشقر المائل إلى الحمرة، وأردف قائلاً:

- الصمود.. الصمود هو كل ما يلزمنا الآن. أجسامنا واهنة. العطش يقتلنا، والجوع استنزف كل قوانا، وشرفنا الثوري يتوقف على إرادتنا وقدرتنا على التحمل.

ضغط السائق للمرة الألف على الفرامل، ونفث عادم الشاحنة دفعة قوية من دخان المحروقات تسللت عبر الثقوب إلى صندوق الشاحنة محكم الإغلاق، واختلطت رائحتها مع الرائحة المنبعثة من الأفواه ورائحة القيء الأصفر لتكون مزيجًا من الروائح المثيرة للغثيان. ألقى أبو السعد برأسه إلى الأمام. راودته رغبة شديدة بالتقيؤ. لم يستطع أن يغالبها، فانقذفت من فيه كمية كبيرة من عصارات المعدة مختلطة بالدم الأحمر القاني.

- دم؟!

نطق أبو السعد وقد ازداد وجهه اصفرارًا، وأكمل:

– اللعنة على القرحة. المعدة تنزف ويخرج الدم مع العصارات، ولكن لا تهتم، فما زالت لدي القوة لأن أصل إلى السجن الذي يريدونه.

– السفر في مثل هذه الشاحنة مرهق وأنت في كامل قواك، فما بالك وأنت في اليوم الثامن للاضطراب؟

– إنه جزء من التعذيب. أغبياء. يظنون أننا سنركع.

أبطأت الشاحنة من سرعتها، يبدو أنها تسير في طريق صاعدة، وازداد هدير محركها ما اضطر أبو السعد أن يرفع صوته كما لو كان يتحدث مع شخص يبعد عنه مئات الأمتار:

–" فوتشيك.. يو.. ليوس..فوتشيك.. هل.. قرأت كتابه؟ هو حافظ على شرف انتمائه وهو على عود المشنقة. لم يرهبه الموت. تحدى جلاديه وانتصر عليهم. لماذا لا نكون مثله يا رفيق؟ لماذا لا نكون مثل فوتشيك؟ مثل أبي الفحم، ومحمد الخواجا، وعمر الشلبي، وقاسم أبو العكر.

بدأ له أن أبا السعد تعب للغاية، فقد غارت عيناه عميقًا في محجريهما، وكست وجهه صفرة الأموات، وراحت شفتاه ترتجفان. لم يكن يتمتع بحالة أفضل، ولكنه شعر بالقشعريرة تسري في بدنه وهو يحملق بوجه أبي السعد (آه يا أبا السعد.. فوتشيك يتجسد فيك.. فوتشيك في هذه

الشاحنة وفي هذه اللحظة.. فوتشيك.. فوتشيك يضحي للقضية بالحياة وليس بالشرف). اغرورقت عيناه وهمس في أذن أبي السعد:

- استند برأسك على كتفي يا رفيق، قد يخفف ذلك من الصداع. اصمد.. اصمد.. لقد اقتربنا.

دفع أبو السعد برأسه نحو كتفه وأغمض عينيه، وانبعثت من فيه رائحة كريهة، فيما ارتفع هدير محرك الشاحنة بشكل يصمّ الأذان، وتفاقم الصداع، واتكأت الرؤوس على الأكتاف، وتناهى إلى سمعهم شتائم السجانين وصراخهم:

- اضربوا عن الطعام. بثمن فطوركم سنشتري دبابة، وبثمن غدائكم سنشتري طائرة.

- بعد قليل سترى؛ إذا لم تأكلوا من أفواهكم ستأكلون من (.....).

- بعد قليل سأدعوكم إلى حفلة ديسكو. سترقصون على قدم واحدة.

ومن بين الأسرى ذوي الوجوه الشاحبة، انطلق صوت متقطع امتزج بهدير المحركات وصليل السلاسل وصراخ السجانين وشتائمهم، ولكنه كان مسموعًا وواضحًا:

- نعم لم نمت، ولكننا سنقتلع الموت من أرضنا".

كان الصوت فرديًا، فثنائيًا، فثلاثيًا، ولم يلبث أن انضمت إليه أصوات جميع الأسرى، وراح أبو السعد، ورأسه متكئ على كتف رفيقه، يردد هذه الكلمات، والابتسامة ترتسم على وجهه الشاحب شحوب الموت.

توقفت السيارة، وصار هدير محركها يذوي شيئًا فشيئًا حتى تلاشى. فتح السجانون الباب.

- يللاّ إنزل.. إنزل..

صرخ سجان ذو وجه مجدور، فيما نهض المناضلون عن المقاعد متثاقلين وبأيديهم المكبلة إلى الخلف حملوا صررهم الثقيلة.

- تمهلوا في السير يا إخوان حتى لا تسقطوا أرضًا.

- حملكم ثقيل. قال أحد المناضلين.

- واجهوا عنفهم بالإرادة والصمود. سوف يضربوننا. نحن في مركز التوقيف المعروف بقوة سجانيه. لا يهم عذابنا الجسدي. المهم أن نحافظ عل شرف سلاحنا.

- لا تنسوا يا رفاق أن شعارنا هو الجوع حتى الانتصار وسننتصر.

نزل المناضلون من الشاحنة اثنين اثنين وهدير محرك الشاحنة لا يزال يطن في آذانهم في الخارج. كانت النجوم ترصّع السماء، والقمر بنصفه المتوجه يميل قليلاً عن وسطها، ومن بعيد تراءت لناظريهم أضواء لامعة مرتعشة، وتناهى إلى سمعهم صفير قاطرة، وهبت نسمة باردة تصفحت

وجوههم، وطبعت عليها قبلة منعش، ثم واصلت مسيرها، وهنا وعلى مسافة قريبة كان السجن يفتح بابه الحديدي كشدقي وحش جائع. ساروا نحو الباب المفتوح. هدوء مفاجئ لا يبدده إلاّ صليل السلاسل الثقيلة.

– لنسر بنفس السرعة يا رفيق؛ حتى لا نسقط.

همس في أذن أبي السعد.

نظر إلى الأمام. كان يقف على امتداد الرواق الطويل صفان من السجانين تتدلى من أيديهم هراوات بلاستيكية، وتغطي رؤوسهم الخوذ الحديدية.

انتصبت قامات المناضلين وارتفعت رؤوسهم، وواصلوا المسيرة بخطوات متزنة بين الصفين حتى سمعوا لهجة أخرى من ضابط ذي وجه مخنث يتكلم العربية بطلاقة:

– قف هنا. ادخلوا إلى هاتين الزنزانتين. وجوهكم نحو الحائط. لا أريد أن اسمع أيّ همسة. مفهوم؟

وقفوا ووجوههم نحو الحائط. تراخت أصابعهم، وسقطت الصرر الثقيلة على الأرض.

– ما رأيك يا رفيق هل نطلب ماء؟ إننا عطشى. سأل أبو السعد بصوت يكاد لا يسمع.

- لنحاول. لن نخسر شيئًا.

- يا حارس.. يا حارس.. نريد ماء.

انتفض أحد السجانين كما لو وخزه أحد في إليته، وصاح واللعاب يتطاير من فمه:

- من هذا الكلب الذي طلب ماء؟

ساد صمت ثقيل. لم يجب على سؤاله أحد.

- إن لم يظهر هذا الجبان، سأقطع ألسنتكم جميعًا.

- أنا يا حارس. أنا الذي قلت نريد ماء، وماذا في ذلك؟

قال أبو السعد مديرًا وجهه ناحية السجان الذي ابتسم كاشفًا عن أسنان نخرها السوس.

- أنت إذًا؟ أنت تريد ماء؟ يا سلام! لماذا أضربت يا سبع؟ كن سبع يا سبع.

قالها بينما ارتفعت الهراوة وهوت على رأس أبي السعد، وعاود الارتفاع على كتفه، وارتفعت للمرة الثالثة، وهوت عل جدع رقبته.

ترنح أبو السعد. حاول منع نفسه من السقوط. لم يستطع. هوى بجسمه النحيف على الأرض. تقدم السجان ورفعه بقوة.

- تفو.. مثل غصن الشجرة الجاف وتضرب عن الطعام؟ لا تتكلم. اثبت مكانك. مفهوم؟

التصق أبو السعد برفيقه وهو يهمس بصوت غير مسموع:

- أول الغيث قطرة. آخ.. ما أشد ضرباته.. ابن الكلب.. ولا يهمك.. نحن قدها وقدود.

- سنفكّ قيودكم. من يحرك يديه أو قدميه بعد فكّ قيده سنكسرها له.. ها؟ قال سجان بينما تقدم آخر نحو المناضلين، وبدأ بفكّ القيود التي بدد صليلها جدار الصمت الثقيل.

فكّ قيده، وتحررت قدمه من السلسلة التي تربطها قدم أبي السعد. تغضن جبينه بالعرق. تسللت بضع قطرات منه عبر شعرات حاجبيه وتعلقت برموشه لتنزل إلى عينيه مسببة له حرقة شديدة. راودته رغبة جامحة في أن يفرك عينيه. آه لو يستطيع أن يمدّ يده إلى عينيه ويفركها، ويطرد حبات العرق المالحة. لكنه لا يقدر. لقد بدا له أنّ تهديد الحارس كان في غاية الجديّة، وأنّ أيّ حركة منه مهما كانت صغيرة ستكون عاقبتها وخيمة، لذلك اقتنع بأن الحرقة في العين على الرغم من شدتها أهون ألف مرة من الضرب بالهراوة على الرأس والرقبة أو الكتفين.

- اجلس.. اجلس يا عرص.

صرخ السجان بحدة، وألحق صراخه بضربة قوية على كتف أحد المناضلين الذي أصدر أنينًا موجعًا سرعان ما أنكتم.

- قلت لكم من يأتي بحركة سأهشّم رأسه.

من يأتي بحركة سيهشّم رأسه. من يحرك يديه سيكسرها له. من يطلب ماء سيهوي بالهراوة على رأسه. من يعطس سيندم. لا تتحرك. أجمد مكانك. ثبت نفسك بالمسامير. إيّاك أن تمسح العرق المتصبب من جبينك. لا تلتفت إلى جارك. اجلس. قف ووجهك إلى الحائط ويداك خلف ظهرك. قف هكذا. ساعة. ساعتان. احتمل الضربات الموجعة على الإبهام والنغزات القوية على الخواصر، وخبط الرأس بالجدار الصلب. احتمل العطش الشديد، وأطفئ النار المتوهجة في داخلك بصبرك. لا تشكُ. لا تنبس بأيّ كلمة. كل كلمة تدفع ثمنها غاليًا. دعسة على البطن، أو صفعة على الوجه، أو بصقة بين العينين، أو نتف لشعر شاربك إن كنت من ذوي الشوارب.

كان يقف بجواره كأنه تمثال من حجر. يحدّق بالحائط بعينيه الحمراوين اللتين ألهبتهما حرقة العرق المالح. حدقتاه فقط كانتا تتحركان بين الفينة والأخرى. كان يدوّرهما يمنةً ويسرةً مراعيًا أن لا يحرّك رأسه، وحين كانت تُصِمّ أذنيه وَقْعُ أقدام الحارس وهو يقترب ناحيته، كانت ركبتاه ترتجفان فيدفعهما قليلاً نحو الحائط ليخفي ذلك عن السجان، وينتظر أن يقوم السجان بضربة على مكان في جسده، غير أن الحارس لا يضرب فورًا. يرفع الهراوة فوق رأسه. ها هي الهراوة ترتفع. بعد ثوانٍ سيهوي على رأسه ويحطّمه. يصعد الدم إلى الأعلى وتتحفز كل خلايا

الرأس الذي ينكمش ويتقلص مختبئًا بين الكتفين. لكن الضربة لا تهوي على الرأس، بل على منتصف العمود الفقري، أو على إصبع الإبهام.

- اجلس. قلت لك اجلس.

وخزه الحارس بخاصرته التي كم تمنّى لو كانت من مطاط أو جلد فيل. تململ في وقفته مستجيبًا لأمر الحارس. كم من الوقت سيبقى على هذه الوقفة؟ كم من الوقت سيظل يعاني من آلام الضرب على الخاصرة والعمود الفقري والإبهام وجذع الرقبة؟ كم سيظل يعاني من العطش الشديد الذي يزداد وطأة كلما فقد جسمه كمية من العرق المتصبب؟ أسئلة كثيرة لا يدري كيف يجيب عنها. كان يدرك أنه في مسلخ، وفي المسلخ لا يحْسنُ التفكير بأسئلة تبدو الإجابة عليها مستحيلة. عليه أن يحتمل، وأن يواجه كل موقف في حينه. دوّر حدقتيه ناحية اليمين حيث يقف أبو السعد. وجده يلتصق بالجدار مثلَه والعرق يبلل وجهه الذي اتخذ قسماتٍ حادةً لم يألفها من قبل. خفض حدقتيه. صدره يرتفع وينخفض بصعوبة ظاهرة. ركبتاه ترتجفان (آه يا أبا السعد- كم ضربة تلقيت دون أن تتأوه، أو تئن، وتسقط لتنهض مجددًا). راودته رغبة أن يهمس بأذنه ويقول شيئًا. أيّ شيء. لا يهم. المهم أن يسمع صوته. لكنه غالب رغبته، وأغلق فمه بإحكام حين عاد السجان ليقترب منه ويهوي بالهراوة على جذع رقبته.

- أخّ.

- من هذا الذي يقول أخ؟ قالها حارس آخر وقد اقترب منه.

- أنا قلت: لماذا تضربوننا هكذا؟

تكلّم لأنه لم يعتد أن يقاوم رغبته بالكلام. تكلّم، وليحدثْ ما يحدث. المبلول لا يخشى من ماء المطر. استجمع كل قواه وانتظر الخطوة التالية، لكنه قرر أن يتكلم وأن يقول كل شيء.

- لماذا نضربكم؟ من هو الذي ضربك.. ها؟

غسلت الكلمات التي تلفظها قلبه من بقع الرعب التي لوثته قبل حين. حرك يديه. تركها تسقطان على جانبيه. أدار رأسه نحو الحارس. حدّق فيه بعينيه الحمراوين. كان الضابط ذا الوجه المخنّث.

- أنتم تضربوننا. أسمعت؟ أنتم منذ ساعة ونحن تحت رحمة هراواتكم. لماذا؟

- ها.. ها.. لا تبالغ.. أشر بيدك على الحارس الذي ضربك؟ قال الضابط ذو الوجه المخنّث، فيما انطلق الحراس الآخرون في قهقهة هستيرية.

- كلهم ضربونا، وأنت أيضًا.

- هل رأيت أحدًا؟

كيف يرى ووجهه نحو الحائط؟ لم يرَ، بل سمع الخبط على رؤوس الرفاق. كان يحسّ بالآلام تأكل أوصاله. إبهامه انتفخ وتخدّر ولم يعد يقوى على تحريكه. فقرات عموده الفقري كادت تنفصل عن بعضها. رقبته لم يعد يشعر بوجودها، وماذا بعد كل هذا؟ إلى متى سيظل هو ورفاقه على هذه الحال؟

نظر إلى الحراس فيما خدشت أذنه همسة انطلقت من فم أحد الرفاق.

- اطلب الماء.. اطلب الماء".

- نريد ماء. قال.

- آه..ماء. حسنا. لماذا لا تقدّموا لهم الماء؟ هات الماء يا كيّوف.

تنحنح مناضل. حرك آخر يده. تململ ثالث. إذا دخل الماء الأفواه رطّبها، وأنعش الصدور، وخفّف من حرارة الجسم، وعوّض الماء المفقود عن طريق العرق. الماء هو كل ما يتمنونه الآن. هل يأتي الماء؟ كيوف ذهب ليأتي بالماء. لماذا لم تعد يا كيّوف؟ لماذا تأخرت يا كيّوف؟ عاد كيّوف. كم غاب؟ دقيقة؟ دقيقتين؟ لا. غاب دهرًا كاملاً كما لو أنه جلب الماء من جزر واق الواق. عاد كيّوف حاملاً بيده كأسًا بلاستيكيًّا مليئًا بالماء (آه يا كيّوف.. تكفي هذه الكأس لستة وعشرين شخصًا فقدوا من أجسامهم قدرًا من الماء يكفي لإغراقك وأنت واقف؟ هل تريدني أن أشرب لوحدي؟ يا كيّوف الكأس لا تكفي.. يا كيّوف). تناول الضابط

ذو الوجه المخنث الكأس البلاستيكي. مده نحوه. هل يأخذه؟ هل يشرب ويروي ظمأه ورفاقه يشتعلون من الداخل؟ لا..لا.. لن يفعل.

- خذ!

- لا تكفي كأس صغيرة لستة وعشرين.

- حسنًا.. سيشرب الجميع واحدًا واحدًا. اذهب يا كيّوف وهات سطلاً من الماء.

ذهب كيّوف. عاد بالسطل. يمكنه الآن أن يشرب. مدّ الضابط يده بالكأس نحوه. نظر إلى الماء التي بداخل الكأس. مصمص شفتيه المتيبستين. مدّ يده. بقيت يد الضابط ذو الوجه المخنث ثابتة. كادت أصابعه أن تلمس الكأس، غير أن الضابط أرخى أصابعه، وسقطت الكأس، وانساب خيط رفيع من الماء على الأرض بين أقدام الأسرى، فيما تصلب وجهه، وعادت يده لتستقر على جانبه، ووخزت أذنيه قهقهة عالية. ودّ لو ينتفض وينشب أظافره برقبة الضابط ولا يتركه إلا جثة هامدة. نعم.. ودّ.. لكنه لم يفعل، وكيف يفعل وهو الذي لا يملك من القوة غير إرادته في الصمود؟

- فاشيون.. فاشيون.." همس من بين أسنانه.

– قهه قهه قهه. تريد ماءً يا عرص؟ اشرب من بولك النجس. قال كيّوف الطويل النحيل ذو الوجه المجدور، وأضاف والزبد يتطاير من فمه:

– استدر نحو الحائط. لا تتحرك. واختتم كلامه بأن وجّه ضربة على رأسه، وأخرى على منتصف العمود الفقري، وأحسّ على الرغم من ما حدث أنّه قويّ.

كم ساعة مرت وهم على هذه الحالة؟ ساعتان؟ ثلاث؟ لا يهمّ.. المهمّ أن الحراس انتهوا من إجراءاتهم، وتسلّم المناضلون الملابس الجديدة ذات المقاييس الكبيرة جدًّا، وصعد كل منهم على الميزان بعد أن اختبر الممرض قوته بتوجيه اللكمات والركلات على الأماكن الحساسة في الجسم، وبعد قياس الضغط والنبض والحرارة أعطى ذو الوجه المخنث الأمر للحارس.

– ضع كل واحد في زنزانة منفردة.

تلقف المناضلون هذا الأمر بفرح وارتياح، فهناك يعني أن يستلقي الواحد منهم على الأرض، ويحرك يديه كما يشاء، ويثني رجليه كيفما يشاء، ويفرك عينيه من العرق، ويدلك الإبهام الذي تخدر وتورّم، والأهم من كلّ ذلك، سيندفع نحو صنبور المياه ويفتحه على آخره ويشرب منه، ويشرب حتى يرتوي، ثم يضع رأسه تحته أو يبلله بالماء البارد المنعش

اللذيذ. بيد أن حلمهم هذا سرعان ما تبدد حين اقتيدوا إلى زنزانات ضيقة وعارية بلا مرحاض أو صنبور مياه.

(4)

ما زال الصراخ يتناهى إلى سمعه من بعيد يرافقه من وقت لآخر لفظ استطاع أن يكون من كلماته الجملة التالية (لا.. لا.. لن آكل). إذًا ما زال يتعذب. ما كان ليصرخ لو لم يكن التعذيب يفوق طاقته. من أين تأتيه القوة على احتمال مثل هذا التنكيل؟ هل لديه هو القوة الكافية للصمود أمام هذه الوحشية؟ ماذا لو انهار وتهاوت قواه، وامتدت يده إلى لقمة الخبز الملقاة على الطاولة، وأدخلها في فمه، ولاكها أمامهم وابتلعها؟ لا.. لا.. لا يمكن ذلك. حاول أن يطرد هذه الفكرة اللئيمة من ذهنه. سيصمد مثل أبي السعد الذي ما زال يصرخ، ومثل غيره من الأسرى الذين سبقوه في الدور مثل أبي الفحم والخواجا، بل مثل فوتشيك ذاته.. فوتشيك الذي تحدث عنه أبو السعد وهو يذوي في الشاحنة. بالتأكيد سيكون مثلهم. هكذا قرر مع ذاته. المسألة تتجاوز تناول قطعة خبز، بل لو اقتصرت على ذلك لهان الأمر. إنها الشرف الثّوريّ، ورفض الذّلّ

والركوع. لن يسلّم سلاحه الأخير لأعدائه. سيحافظ عليه مهما كان الأمر.

أخرجته من دوامة الأفكار وقع أقدام تصعد الدرج وأنين توجّع وشتائمُ بذيئةٌ تنبهت لها كل خلايا جسمه. نهض بصعوبة مستندًا إلى الجدار، والتصق بالباب، وانتابته حالة من الدّوار كادت توقعه على الأرض. ثبّت نفسه، وأصاخ السمع إلى صوت الخطوات القادمة من أسفل. اقترب الصوت شيئًا فشيئًا، وسمع خشخشة المفاتيح المربوطة في حزام الحارس، وصار الأنين واضحًا يتخلله كلمات مكتومة. تجاوزت الأصوات زنزانته. توقفت مقابل الزنزانة المجاورة، فسمع قرقعة مفاتيح، فصريرَ بابٍ، ثمّ خبطةً قويةً، فصرخةً مخنوقة، وصفق الباب بقوة. عادت الأقدام تطبطب على أرض الرواق، واقتربت نحو زنزانته، فها هو المفتاح يخرج من الحزام ليدخل ثقب الباب. يدور مرة، مرتين. لم يفتح الباب. ينتزع المفتاح ليدخل مفتاحًا آخر. يدور ويدور. في هذه اللحظة التي لا قياس لها شحذ كل حواسّه، ومرّ في مخيلته شريط طويل من ذكرياته، فرفاقه في "نفحة" الذين يتمددون على فراشهم متغلبين على أوجاع المعدة والصداع. ترى بماذا يفكرون الآن؟ لا بدّ أنهم قلقون على مصيرنا. تذكر المخيم ببيوته التنكية والبئر التي تقع في وسطه. كانوا يجتمعون حولها في الليالي الصيفية. تذكر والده بوجهه الملوح ويديه المشققتين. "عندما

أخرج يا أبي من السجن سأمنعك من العمل. سأعمل أنا بدلاً منك. آن الأوان كي ترتاح. خمسون سنة و أنت تضرب بالفأس يا أبي كي تبني مستقبلاً جميلاً لأبنائك". ورأى في هذه اللحظة أمّه منكمشة في إحدى زوايا مكتب الصليب الأحمر بين جوع الأمّهات المضربات، بوجهها الأجعد الشاحب، ونظرتها الجريئة الصافية، والجوع يأكل أوصالها، وتردّد في ذهنه صدى صوتها الحنون.

– دير بالك على حالك يمّا.

قال لها مرةً أثناء الزيارة إنهم سيعلنون الإضراب عن الطعام، وإنّ الأمر قد يستمر طويلاً. نظرت إليه بحزن وارتعشت أوصالها، وأردفت:

– لازم نضرب معاكم يمّا. بعد الزيارة لازم نروح على مكتب الصليب الأحمر. إحنا معكم يمّا. معكم لآخر ساعة.

تمايل طيف أمّه بثوبها الأسود أمامه. ابتسمت له وهتفت:

– شايف يمّا.. شايف أمّك– أمّ العزّ كيف تجوع مثلكم. وحياة راس أبوك ما بذوق الأكل غير لمّا تتحقق مطالبكم.

– لن أخذلك يا أمي.. لن أخذلك يا أمّ العزّ.

همس بصوت مسموع، فيما كان المفتاح يدور في ثقب الباب الذي فتح محدثًا صريرًا مألوفًا لدى السجان والأسير معًا.

(5)

سار في رواق طويل. لاحظ أنه مرتّبُ بعناية فائقة.. علّقت على جدرانه من الجانبين أصص زرع فيها زهور لا رائحة لها، ولوحة كبيرة بألوان باهتة لشجرة نخيل عالية على شاطئ مترامي الأطراف، وأقفاص حديدية في داخلها أنواع مختلفة من طيور خرساء كالدمى.

(6)

شدّه الحارس من ذراعهِ بقوة، وتلفظ بكلمة بذيئة، وانعطف به نحو رواق آخر أقصر من الأول في نهايته غرفة يعلو بابها المفتوح لافتة صغيرة كتب عليها كلمة "عيادة"، وعلى جانبيه عدد من الزنزانات الانفرادية. سار بخطى وئيدة متثاقلة محاولاً الاحتفاظ بتوازنه بالاستناد إلى الحائط، وحين اقترب من إحدى الزنزانات المفتوحة، صعق لدى رؤيته (عطية). كان متربعًا على أرضية الزنزانة وأمامه وعاء من الطعام وقطع من الخبز، وكان فمه يلوك ويلوك بشراهة ونهم. توقف لحظة أمام المدخل. نظر إليه نظرة احتقار وازدراء. لم يرَ في حياته مشهدًا مذلاً إلى هذه الدرجة. شعر بالأرض تميد من تحت أقدامه. تردّد في داخله صراخ (لماذا عملتها؟ لماذا؟ لماذا انسحقت إلى هذه الدرجة؟). طعنه بنظرة سقطت عليه كالسكين، واستمر في سيره فيما ظل (عطية) بعينيه الضيقتين كعينيّ هرّ،

وشاربه الملوث ببقايا الطعام، وجسمه النحيل كعود جاف، يجلس ككومة من الخرق البالية يلوك الخبز والطعام ممزوجًا بالمهانة.

(7)

اقترب من غرفة العيادة. خمس خطوات.. أربع.. ثلاث.. اثنتان.. خطوة. وقف على العتبة. اعتدل. ألقى نظرة واحدة إلى الغرفة. واسعة. جدرانها مزينة برسومات مختلفة. في الجهة اليمنى طاولة صغيرة تناثرت عليها قطع من الخبز وبضع حبات من البندورة، وإلى جانب الطاولة رأى أنبوبًا مطاطيًّا غليظًا تتصل نهايته بوعاء كبير ملئ بسائل يميل إلى البياض، وفي الجهة اليسرى ميزان كبير يقف إلى جانب المرض الذي رآه قبل ذلك. يشبه الثور في ضخامته. يرتدي رداء أبيض ملطخًا ببقع حمراء، وتتدلّى من رقبته سماعة الطبيب، وهنا وهناك يقف عدد من الضباط تلمع على أكتافهم نجم نحاسية، وبينهم كيّوف والضابط ذو الوجه المخنّث، وفي إحدى الزوايا رأى إبريقًا زجاجيًّا مليئًا بالماء، وبجانبه عدد من الهراوي البلاستيكية، وبقع كبيرة من القيء والدم كانت تغطي جزءًا كبيرا من أرضية الغرفة.

– أهلاً وسهلاً بالبطل! نطق المرض بلهجة ساخرة وصوت أجشّ، وأضاف مشيرًا إلى كرسي صغير:

- تفضل.. اجلس.

تقدم بضع خطوات، وهبط على الكرسي محاولاً التغلب على رعشة قوية اجتاحت جسمه كله، وكادت تفضحه. اقترب منه الضابط قليل الحجم ذو الوجه المخنث ووضع يده على كتفه:

- مسكين.. انظر يا ديفيد إلى شفتيه المتيبستين وعينيه الذابلتين ووجهه الضامر. يبدو أنه عطش جدًّا. هات إبريق الماء.

اتجه آخر نحو الإبريق. تناوله واقترب منه (آه لو أحصل على قطرة. إنّ جوفي يحترق والماء قد يساعدني على الصمود، ولكن هذا محال. هذا الضابط نفسه هو الذي أوقع الكأس من يدي قبل الآن). رأى الإبريق أمامه بمائة الصافي العذب على بعد ذراع واحد فقط. مدّ يده. أمسك بالإبريق. شعر ببرودة الماء تسري في بدنه وتصعد إلى رأسه (آه ما أطيب الماء).

- انتظر يا دافيد. لا تتعجل. قد يسبب له ضررًا. قال الممرض ذو الرداء الأبيض وهو يخطو نحوه، فيما انتزع الضابط الإبريق من يده التي ظلت للحظة ممدودة بالهواء على أمل الحصول على شيء. بدا الموت أقرب منه.(إذًا بدأت اللعبة). تململ على كرسيه، وركّز نظره على أرضية الغرفة حيث القيء وبقع الدّم، وشحذ كلّ حواسه. استعدّ لاستقبال الآتي.

- انظر إلى وجهي. رطن الممرض بلهجة آمره.

رفع عينيه عن بقع الدم وصوّبها نحو وجه الممرض. رأسه كروي يغزوه شعر قصير أجعد. أذناه صغيرتان تكادان لا تظهران من فرط انتفاخ وجنتيه المتهدلتين بوقاحة. عيناه صغيرتان بشكل ملفت للنظر. خفض نظره قليلاً. منكباه عريضان يتناسبان مع ضخامة جسمه. ذراعاه مفتولتا العضلات متدليتان على جنبيه كالمجدافين تنتهيان بأصابع غليظة منتفخة (أيعقل أن تكون هذه الأصابع أصابع ممرض؟).

– اسمع يا... هل تعرف أين أنت؟

– ..... (أعرف أني في المسلخ. أمامي جزار خبير في أمور السلخ والتعذيب. كلّف بمهمة يحتاج منفذها إلى قوة فائقة وضمير غائب).

– عندما أسالك سارع في الجواب.

ألحق كلامه بصفعة قوية هبطت على صفحة وجهه كالمطرقة.

– (أسارع في الجواب؟ ماذا أقول؟ أنت تعرف، وهو يعرف، وكلكم تعرفون، وأنا أعرف بأنّي في مسلخ. تحاولون فيه إنهاء إضرابي بالقوة.)

– مهلاً يا رويمي. هدئ من روعك. يبدو أنّه مسكين وعاقل. قال الضابط ذو الوجه المخنث، فيما اقترب صوب الكرسي حتى كاد يلامسه و أضاف:

– لقد آلمته يا رويمي. انظر إلى خده إنه أحمر، وآثار أصابعك تبدو واضحة عليه. اسمع يا (...). أنت لا تعرف أين أنت، ولو كنت تعرف

لأجبت. أنا سأقول لك. انتبه جيدًا. أنت في مركز التوقيف. يعني أنّك لست في نفحة. أنت مضرب عن الطعام منذ ثمانية أيام. يبدو عليك الإرهاق والتعب والعطش والوهن. فماذا أيضًا؟ آه.. الجوع.. أنت جائع حقًّا. أنا أعرف لماذا لم تأكل هناك.. هناك كنت بين زملائك الذين امتنعوا عن الطعام مثلك، ولا يعقل أن تأكل وتتركهم لأن هذا يحرجك، أمّا هنا فالأمر يختلف تمامًا. أولاً هنا مركز التوقيف ليس نفحة. أنت تريد هواء؟ حسنًا. يوجد هناك هواء كافٍ ونقيّ املأ رئتيك وقتما تشاء. أتريد مساحة واسعة تتنزه بها؟ يوجد هناك مساحة أكبر من ملعب مكابي تل أبيب. ماذا تريد أيضًا؟ أتريد سريرًا لترتفع قليلاً عن الأرض الرطبة؟ حسنًا.. هناك يوجد أسرّة مغطاة بشراشف بيضاء ناصعة كالثلج، وليس لدينا أيّ حالة لالتهاب المفاصل أو مرض في العمود الفقري. ماذا أيضًا؟ الطعام؟ مطبخنا هنا أرقى من كلّ المطابخ الشرقية. زيارة الأهل؟ هنا يُزار المساجين مرتين في الشهر. أتريد أيضًا جهاز راديو لتسمع أخبار العالم؟ حسنًا.. هنا بإمكانك مشاهدة التلفزيون. ماذا طلبت أيضًا؟ معاملة حسنة؟ كل شيء هنا حسن. ألم تشاهد في الرواق الورود والعصافير؟ باختصار؛ هنا لا مبرر لك للإضراب. كل ما تطلبه موجود. هذا أولاً، وثانيًا والأهمّ أنك لا تعرف يا صديقي أنّ أصحابك أكلوا حتى شبعوا؟

لم يصغ لبقية الكلام. كان يدرك أنّ هذا جزء من اللعبة. (عطية) فقط هو الذي أنهى إضرابه، ووافق على الانسحاق مقابل قطعة خبز وشربة ماء، ولم يكن غريبًا عليه أن يخرج عطية عن الإجماع ويضحي بشرفه في لحظة جبن، فهو لم يعرفه إلا أنانيًّا محبًّا لذاته للدرجة التي تجعله يكره كل شيء خارج حدودها، وقد يكون مندسًّا وضع في الزنزانة والطعام أمامه، ليؤثرّ على معنويات المناضلين، أما رفاقه فقد كان على يقين بأنّ كل محاولات القمع لم تنجح في تركيعهم، وكان مطمئنًا من هذه الناحية، ومنبع اطمئنانه لم يكن فقط معرفته بأبي السعد وأبي موسى وأبي الرائد وباقي المناضلين، بل رؤيته للدم الذي يصبغ بلونه الأحمر رداء هذا الذي يسمّى مجازًا بالممرض.

– ها.. ما رأيك الآن بعد أن عرفت أين أنت؟

عاد الصوت المخنّث يطرق أذنيه (آه– يريد رأيي. إطالة زمن اللعبة ليس في صالحي. سأنهيها بأسرع ما يمكن. هذا الضابط أعرفه، إنه أخبث من ثعلب).

– تريد رأيي في ماذا؟

– لا.. لا يا سيّد.. أنت ذكيّ.. أنا أعرفك.. ألا تذكر؟ أعرفك أنت ذكي، وفهمت السؤال. أجب بصراحة. كل شيء موجود على الطاولة؛

الخبز والبندورة وهذا الإبريق المليء بالماء العذب. أجب بصراحة.. ما رأيك؟

نظر إلى وجه الضابط. تضاءل الوجه. أصبح بحجم الذبابة. اتسعت حدقتا عينيه. حملق في الذبابة. (يريدني أن أجلس مثل (عطية) وأضع أمامي خبزًا وبندورة، وأبلع المذلة والمهانة وأتساقط. أعرفك يا ابن.... يا أصغر من ذبابة. كنت تفضل دائمًا المساومة.. دبلوماسي ماهر).

- تريدني أن أجيبك بصراحة. أنا أرغب في عدم تضييع الوقت. حسنًا إليك رأيي. أضربت عن الطعام قبل ثمانية أيام مع ثمانين أسيرًا، ولن أنهي الإضراب إلا مع الثمانين أسيرًا.. أتفهم؟ مع الثمانين أسيرًا، وفقط حين تتحقق مطالبنا، وبإمكانك أن تقوم بمهمتك ولا تحاول المساومة. كل شيء واضح ولا داعي لكل مناوراتك. أعرفك جيّدًا لسوء حظك..و...

وامتدّت إليه ذراع الممرض، وتلقى لكمة تحت الأذن أفقدته توازنه، ثم ركلة شديدة على بطنه.

- ابن القحبة.. انهض.

نهض عن الكرسي واضعًا يده على بطنه. أظلمت الدنيا في وجهه بتأثير اللكمة والركلة. استحال الأشخاص أمام ناظريه كالأشباح، وتحولت الأصوات إلى طنين متواصل غير مفهوم

- اخلع ملابسك.

امتدت يده بآلية إلى عروة قميصه. بدأ يفك الأزرار. لم يقو على ذلك. تهاوى على الأرض من شدة الدوار. أمسكه رويمي من ذراعه، وشده إلى الأعلى.

- أنهض يا كلب.

جمع ما تبقى لديه من قوة. خلع القميص. خلع البنطال.

- أكمل.. اخلع كل ملابسك.

خلع ملابسه الداخلية. وقف في وسط الغرفة عاريًا.. نحيلاً.. شاحبًا.. لا يكسو عظامه إلا الجلد والجلد، حتى الجلد كحراشف السمك من شدة الجفاف. أطلق المرض ضحكة هازئة لدى رؤيته هذا الجسم الإنساني الذي ذكره بالهيكل العظمي المعلق في خزانة زجاجية في القسم الثاني من العيادة، وانتقلت عدوى ضحكته التي سرعان ما تحولت هستيرية إلى باقي الضباط الذين راحوا يتمايلون ويتضاحكون، فيما كان هو ينظر إليهم وقد اكتسحت وجهه تعبيرات حادة.

- إذا لم تأكل من فمك ستأكل من (.....) أفهمت؟ صرخ المرض.

- قلت لك لن أضع في فمي أي نوع من المأكولات.

- والحليب؟

- والحليب؟ تعامل معي حسب القانون.

– يا ابن القحبة.. ألا تعرف أننا نحن الذين نضع القانون ونلغيه؟ أتعتقد أن القانون يجيز لك حليبًا؟ لتحافظ على قوتك وتستمر في الإضراب أطول مدى. هنا لن يدخل فمك قطرة واحدة من الحليب، وستأكل من برازك.

لطمه على وجهه بكف يده ذي الأصابع الغليظة. تأوه.. وقع على الأرض، وراح الممرض يركله على بطنه ووجهه وفخذه وعضوه التناسلي. لم يحتمل. صرخ صرخةً من الأعماق.

– هل ستأكل؟

– لا... لا..

عاود الضرب. انضم كيّوف إلى الممرض مستعينًا بهراوة بلاستيكية، وركز ضرباته على أسفل البطن والخصيتين. صرخ مرة.. مرتين. تواصل الصراخ واشتد الألم. انضم ثالث، فرابع. شعر بأوصاله تنفصل. غيمت عيناه، وتحول صراخه إلى أنين.

– هل تأكل؟ هل تأكل؟

– .....

– لم يجب. يبدو أنه موافق. قال ذو الوجه المخنّث.

– أرجوكم.. لماذا هذه القسوة؟ اتركوه لي.

شدّه من يده وأنهضه ببطء حتى أوقفه على قدميه، وهو يسمع أصواتا غريبة، وهو يرى أشباحًا سوداء تتمايل، ونقاطًا بيضاء تتراقص أمامه. إذًا هو لا يزال حيًّا. كيف احتمل كل هذه الركلات واللكمات وضربات العصي؟ اختل توازنه. جرّه ذو الوجه المخنث نحو الكرسي. أجلسه عليه. بدأت الأصوات تتضح أكثر فأكثر. حملق أمامه. كانوا يحيطونه على شكل دائرة.

استمر في الأنين وصدره ما زال يرتفع وينخفض.

– لن تستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. ستأكل إن عاجلاً أم آجلا. وفّر على نفسك كلّ هذا العذاب، وانْهِ إضرابك.

– قلت لك لن.....

انتفض الممرض كما لو لدغته أفعى، وقال الضابط المخنث:

– أنت تؤخرنا في إنسانيتك. دعنا ننهي الموضوع. لدينا الكثير مما يجب عمله.

– أرجوك يا رويمي اهدأ. بدأ يفكر. ألا ترى؟ اسمع يا (.....)، صحتك تسوء وأنت ما زلت شابًّا. لا تكن غبيًّا. لقمة خبز تنقذ حياتك. ألا تحب الحياة؟

نظر إليه. (أحبّ الحياة؟ كيف لا أحبّها؟ لو كنت لا أحبها لما أعلنت الإضراب. بل لما حملت السلاح وقاتلت وأُسِرت. إنّني أحبها وأسمو في حبها، ولكن حبّي من نوع آخر يا أصغر من ذبابة).

- قل ألا تحب الحياة؟

- أحبّها.. نعم أحبّها.

- ها.. ها بدأت تفهم. لماذا إذًا تريد الموت وتسعى إليه؟

- لا أسعى إلى الموت، بل أسعى إلى حياة شريفة كريمة.

- ولكنك قد تموت.

- إن جاء الموت فهو نتيجة وليس سببًا، والموت قد يكون عملاً ثوريًّا.

- أمامك فرصة أخيرة للحياة.. لا تكن مجنونًا.

- أرفض فرصتك.. قلت لك لن آكل.

اقترب الممرض وسماعة الطبيب ما زالت تتأرجح على صدره. أمسكه من شعره بقوة جعلته يعتقد أن جلد رأسه قد انتزع. وهزّه هزّةً عنيفةً، فيما هوى أحدهم بالهراوة على فخذه فركبته. لم يصرخ. (لن أخذلك يا أمّ العز.. لن أخذلك يا أبا السعد.. لن أخذلكم يا رفاقي). دوّى هذا الصوت داخله ليصمد. سيتركونه في النهاية. المهم أن لا يجبن.

- اضربْ كما شئت. لن آكل.. لن آكل.. لن... آ...

تضاعفت اللكمات. سقط على الأرض. هواء. يريد هواءً. قدم الممرض إلى فوق رآها معلقة فوقه كصخرة كبيرة هوت على رقبته. شعر بالاختناق. تحشرج. هواء. يريد هواءً. قليلاً من الهواء. فتح فمه على اتساعه. حاول التنفس. شعر بصعوبة ذلك.غيمت عيناه.

- أتأكل؟

- لا... لا...

ضغط على رقبته بقدمه. امتدت ذراعاه. أمسك بالقدم.حاول إزاحتها. لم يستطع. من أين تأتيه القوة لزحزحة هذه الصخرة؟

امتثلت أمامه صورة أمّه تتمايل أمامه بثوبها الأسود (رايحين نضرب معاكم يمّا.. وحياة راس أبوك ما بفك الإضراب). ازداد الضغط. امتد لسانه خارج فمه. غشت عينيه غمامة سوداء في وسطها تتراقص دوائر بيضاء. تلاشت الأبعاد. لم يعد يرى شيئًا. لم يعد يسمع صوتًا، وغاب عن الوعي.

شعر ببرودة تسري في بدنه. فتح عينيه. وجد نفسه يجلس على الكرسي محاطًا بالضابط، وقطرات من الماء تتدحرج من جسمه العاري. استيقظت الآلام في بدنه. لم يقوَ على تحريك يديه أو قدميه. آه كم تؤلمه رقبته. وجد صعوبة بالغة في بلع ريقه. ما زال حيًّا. يرى ويسمع ويحس ويفكر. نعم يفكر. هذا هو المهم لديه الآن. انتابه إحساس بالفرحة- لماذا؟ لا يدري.

هو الآن حيّ. دمه ما زال يسري في عروقه، ويصبّ في القلب الذي ما زال يخفق، ويصعد إلى دماغه الذي ما زال يفكر.

– ها.. عدت إلى وعيك. لقد أنقذتك في اللحظة الأخيرة. قال ذو الوجه المخنث بوداعة مصطنعة.

– لن أشكرك على ذلك. هتف بثقة وصدره أخذ في الارتفاع والهبوط.

– لن أطلب منك الشكر. قمت بواجبي. صمت برهة. ألقى يده على كتفه وأردف:

– حسنًا.. دعنا ننهي المسألة.أرهقتنا وأرهقت نفسك. هيا كن شجاعًا مثل باقي زملائك.

(صدقت هذه المرة؛ سأكون شجاعًا مثلهم، ولكن لن أكون جبانًا مثل عطية).

– آه ماذا قلت؟

– قلت...: لن آكل .

– انهض.

اقترب الممرض ذو الرداء الأبيض الملطخ بالدم والسماعة تتدلى من رقبته. تناول الأنبوب المتصل بوعاء كبير مليء بالسائل الأبيض، وأضاف والزبد يتطاير من فمه:

- قلت لك.. إن لم تأكل من فمك ستأكل من (.....).

اقترب منه حتى يكاد يلامسه. أمسكه من كتفه، وبحركة سريعة أوقعه على وجهه وضغط بقدمه على ظهره، وسارع الآخرون بتثبيت أقدامه التي راحت تتلوى وتتراقص، فيما أمسك الممرض بطرف الأنبوب وأدخله في فتحة الشرج وسط صراخه وعويله، ورفع الوعاء إلى الأعلى، وانساب السائل إلى داخله، وشعر بأمعائه تغلي نارًا.. تغلي نارًا.

- والآن ماذا تقول؟

- لا.. لا..

- انهض.

- شدّه من ذراعه، ورفعه في الهواء كغصن شجرة، وألقاه على الكرسيّ، ولوى ذراعيه إلى الخلف بقوة وقيدهما بسلسلة حديدية.

- أكلت من (.....) والآن ستأكل من أنفك.

دفع برأسه إلى الخلف بحركة عنيفة، وحاول عبثًا إدخال طرف الأنبوب الغليظة في فتحة الأنف الضيقة. استنشق رائحة برازه. تململ مكانه صارخًا بأعلى صوته، وحرك رأسه يمنةً ويسرة في محاولة يائسة لإبعاد طرف الأنبوب اللعين الذي يغلق الأنف، ويسيل منه السائل الأبيض شديد الملوحة الذي يلهب جوفه.

- لا... لا....

احتدّ صراخه. ردّدت جدران الغرفة صداه. بدأ يشعر بأنّ نهايته تقترب. تحركت قدماه بحركة جنونية. حاولت يداه فكّ القيد المحكم.

– آه يا جوفي.. جوفي يحترق.. أكاد أختنق.

– نعرف.. أنت تريد ذلك.

قال ذو الوجه المخنّث ساحبًا الأنبوب من يد الممرض، بعد أن بدأ الدّم يسيل من أنفه كالنافورة، وتناثر على جسمه، وتساقط على الرداء الأبيض:

– حسنًا.. أكلت من أنفك. أتريد خبزًا؟

– لا... لا...

– إذًا لينزل الأنبوب إلى جوفك عبر فمك بعد أن دخل شرجك وأنفك.

عادت الكفّتان ذواتا الأصابع الغليظة تطبقان على الرأس كالكلاب، وتثبّتانه بقوة تعجز معها تحريكه.

– افتح فمك.. افتح فمك.

جلجل الصراخ مرة أخرى. ها هو الأنبوب يدخل الفم. يعبر المريء. يتوقف قليلاً. شعر بالسائل الساخن ينساب. امتد الأنبوب. ها هو يصل المعدة. يسحبه مرة أخرى ويعيده. في كل مرة كان يشعر بلسعة في قاع معدته كوخز الإبرة. انسكب السائل. ركز نظره. كيف يستطيع والأنبوب

في فمه ويمتد إلى معدته؟ عضّ الأنبوب في محاولة يائسة لمنع السائل من الانسكاب. تناقصَ الوعاء. انسكب ثلثه. نصفه. ثلاثة أرباعه. فرغ تمامًا.

– كفى.. لقد شبع.

نطق ذو الوجه المخنّث مغتصبًا ابتسامة. سحب الممرض الأنبوب إلى الأعلى وأخرجه، ولكن ليس قبل أن يطرق قاع المعدة برأسه عدة مرات.

– فكّ قيده، وأعدهُ إلى زنزانته واستدعِ غيره.

قال الممرض ذو الرداء الأبيض الملطخ بالدّم فيما ألقى بجسمه الثقيل على طرف الطاولة.

حرّك يديه بصعوبة. أغلق فمه بيده محاولاً منع نفسه من التقيؤ، غير أن السائل الأبيض المالح نزّ من بين أصابعه، واندفع بقوة إلى الخارج ممزوجًا بالدّم وعصارات المعدة، واختلط حال ملامسته للأرض بالقيء الذي لم يجفّ بعد.

– احمل ملابسك واذهب هكذا عاريًا.. هيّا أسرع.

قال ذو الوجه المخنّث فيما ألقى ملابسه قطعةً قطعة.

(9)

عاريًا كنت تسير شامخاً كالجبل، ورأسك المرفوع كان كالعلم. يشع من عينيك الأمل، وعلى ثغرك بسمة خالدة، والطيور التي كانت خرساء

قبل حين استقبلتك يا رفيقُ بالغناء والتغريد، والزهور التي كانت بلا رائحة نثرت عليك العطور، ووضعت على رأسك إكليلاً من الغار، واللوحة التي كانت باهتة واجهتك بألوان مضيئة، وحين نظرت صوب الكوّة يا رفيق، كانت خيوط الفجر قد انبلجت من رحم الليل.

(نفحة- نيسان/ 1982)